تحقيق

ميشال كرم
Michelkaram2@hotmail.com

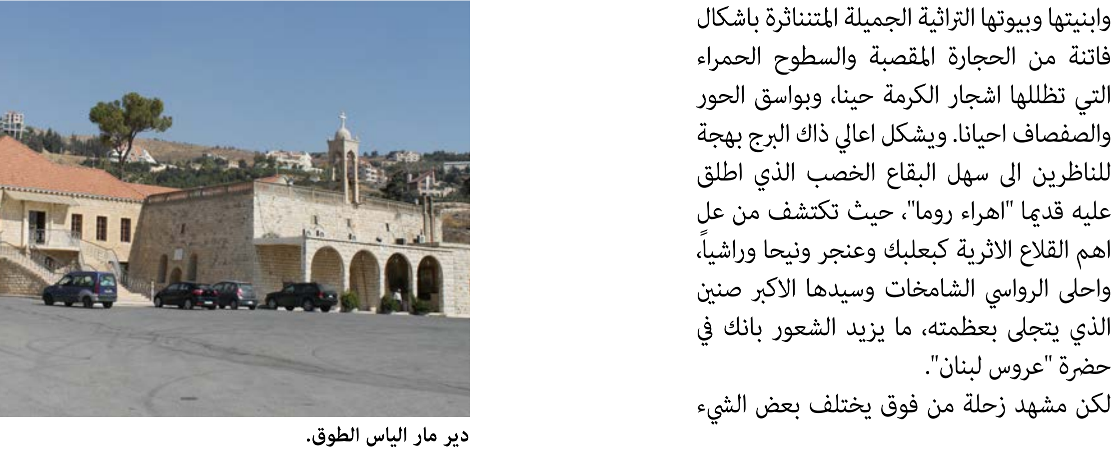
زحلة مزيّنة بعماراتها التراثية وكنائسها الأثرية جمال سطوحها القرميدية يتوارى بين عرائشها

زحلة مدينة حديثة نمت بسرعة، وغدت اكبر تجمّع مسيحي في الشرق، تتميز بتعدديتها لمختلف الطوائف المسيحية الغربية والشرقية. تضم المسيحيين بكاثوليكهم وموارنتهم وارثوذكسهم، اضافة الى سريان وارمن وكلدان ولاتين واشوريين وبروتستانت، وتزخر مع قضائها بموزاييك للمكوّنات يندر وجوده في اي بقعة. اذ يعيش ايضا على رقعته المسلمون، السنّة منهم والشيعة والدروز

تأسست في اواخر القرن السادس عشر، وتتباهى بانها سميت مدينة قبل العاصمة بيروت. نافست جونيه وتخطت اشكالية وعقدة "الغرباء" الذين وفدوا اليها، بحيث اعتنق اهلها هوية عابرة لكل طوائفها، وصاروا اشد انسجاما في ما بينهم، ومنحازين الى مدينتهم التي استمدت مفارقتها التاريخية من جغرافيتها. فهي ارتبطت بشبكة مصالح حيوية مع جوارها سهلا وجبلا، وشكلت عاصمة البقاع الاقتصادية والتجارية والتعليمية والسياحية والاستشفائية. لكنها ظلت مشدودة الى جبل لبنان بعدما تفاعل اهلها اربعة عقود ونصف عقد مع ابنائه بانضمام مدينتهم الى متصرفيته اثر احداث 1860، وباتوا يعتبرون ان جذورهم فيه وينشدونه بعواطفهم ووجدانهم.

من المفارقات التي ميزتها ايضا، شغف ابنائها بتشييد منازل لهم الى حد مبالغتهم في اتقانها وتجميلها بواجهات جميلة مزدانة بزخرفة بديعة، وعقود رائعة، وقناطر شامخة، وسطوح قرميدية، حتى بدت من اجمل المدن للمشرفين عليها من اعالي برج سيدة زحلة والبقاع. فهي ملأت صدر الوادي المنحدر من جهتيه انحدارا هادئا، بكنائسها واديرتها ومقاهيها وفنادقها واسواقها وابنيتها وبيوتها التراثية الجميلة المتناثرة باشكال فاتنة من الحجارة المقصبة والسطوح الحمراء التي تظللها اشجار الكرمة حينا، وبواسق الحور والصفصاف احيانا. ويشكل اعالي ذاك البرج بهجة للناظرين الى سهل البقاع الخصب الذي اطلق عليه قديما "اهراء روما"، حيث تكتشف من عل اهم القلاع الاثرية كبعلبك وعنجر ونيحا وراشيا، واحلى الرواسي الشامخات وسيدها الاكبر صنين الذي يتجلى بعظمته، ما يزيد الشعور بانك في حضرة "عروس لبنان".

لكن مشهد زحلة من فوق يختلف بعض الشيء


السرايا القديمة.

الكلية الشرقية.


اوتيل القادري.

دير مار الياس الطوق.


سيدة الزلزلة اول كنيسة شيدت في زحلة.

عندما تتجول في احيائها المنتشرة على ضفتي واد، يخترقه نهر البردوني الذي ينبع من صنين، فيرصد الزائر ما تعرضت له تلك المنازل التراثية من انتهاكات لجمالية سطوحها القرميدية، في ظل زحف الاسمنت الاسود المسلح الذي يرتفع ابنية شاهقة من دون مراعاة لخصوصيتها وحرمتها ومحيطها، ما ادى الى خسارتها لكثير من مزاياها، بعدما استحقت في الامس القريب توصيف "مدينة صاحبة الرأس الاحمر"، او "الرمانة المفلوقة".

لكنها ليست الوحيدة التي تعاني من اشكالية التوسع العمراني. فالمدن العربية التراثية ليست احسن حالا منها ولا من بعضها البعض. في القاهرة ذهب هذا التراث المعماري الا من بعض مبانيها، وفي القدس صار في طريقه الى الزوال، وفي دمشق وحلب وبغداد وصنعاء وغيرها يتراجع يوما بعد يوم.

لكن العمارات الزحلية المتوارثة من جيل الى اخر، تعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي منتشرة بالمئات في احيائها الـ17، ويضم حي البرابرة في طرفه الجنوبي المحاذي للنهر اجمل اللوكندات والفنادق، فيما يعتبر حي مار الياس اول الاحياء التي استعملت الحجارة المقصوبة التي كانوا يجلبونها من المقالع الواقعة عند مشارف زحلة لناحية قضاء المتن، كما استعان الزحليون بالحجر السماقي لبناء منازلهم وكنائسهم واديرتهم وسراياهم. ويشير المؤرخ عيسى المعلوف الى ان البنائين اقبلوا على ◄


المنزل الذي سكنه الشاعر سعيد عقل في حيّ الميدان.


جانب من قناطر منزل آل جحا.


منزل البروفسور فايز الحاج شاهين وبدت زخرفته الرائعة.


منزل الوزير والنائب جوزف سكاف.

المدينة من الجبل، وجاءها من الشوير طنوس ابي نادر صوايا وحنا ابي ليلى صوايا يعمران الحجر في حاراتها، فتتلمذت عليهم نخبة من الزحليين الذين ساهموا ايضا في اعمارها من امثال موسى البريدي وولديه عبدالله ونعمان، نقولا ومخول القرعوني، خليل الطباع، ابراهيم فرح حريز، ندره الكفوري وغيره.

كان القومسيون البلدي الذي تأسس عام 1878، قد فرض رسما على تراخيص البناء، وتقاضى 3 ريالات مجيدية عن كل طابق مبني بالحجر المقصوب في الخارج واللّبن من الداخل، وريالين مجيدين عن كل طابق مبني بحجر، وريال مجيدي عند اجراء اصلاحات في المنزل، وريال مجيدي ايضا عند اقامة تصوينة.

وقبل أن تتخذ وزارة الثقافة قرارها بحماية هذه الابنية بعدم اعطاء ترخيص هدم، قبل عرض ملفها على المعنيين في الوزارة لتبيان عما اذا كانت تتمتع بالمواصفات التراثية، تعرض عدد منها للتشويه عبر ترميمها باحجار الباطون، وللجرف كقصر المير التاريخي الذي صار موقعه موقفا للسيارات، وللتدمير كفندق الصحة المشيّد في العام 1879 عند مدخل الوادي بطابع معماري مميز، وقضت "حرب زحلة" عليه في ايامها الاولى من العام 1981.

بذلت البلديات المتعاقبة جهودا لاصدار تشريعات تحمي البيوت التراثية وتشجع عودة السطوح القرميدية، الى ان اثمرت في 30 تموز 2010 قرارا من المجلس الاعلى للتنظيم المدني قضى بالموافقة على فرض ثكنة قرميد بنسبة 80% في منطقتي الامتداد السكني والفيلات، وبنسبة 60% في بقية المناطق باستثناء منطقة المدينة الصناعية. ومع هذا القرار بدأت نسبة السطوح القرميدية تزداد تدريجا من دون ان تلامس ما كانت عليه في

عمارات تراثية مكللة بالقرميد مجملة بالقناطر والنقوش والزخرفة

من اعالي البرج يزداد الشعور بانك في حضرة عروس لبنان

العقود الاولى للقرن العشرين حين كانت اجمل مدن الشرق بلا منازع.

ما يسترعي انتباه الزائر الى هذه البيوت، منزل آل جحا في حيّ مار مخايل ومار جرجس، الذي بناه الشيخ خليل جحا في القرن السابع عشر، ويتميز بعقوده الجميلة التي يعلوها بهو كبير تتشابك فيه القناطر التي تخبئ تحتها نفقا سريا بطول 1400 متر يصل هذه الدار بدير مار الياس الطوق الذي بنته الرهبانية الشويرية في العام 1755 بعقوده الرائعة وهندسته البديعة، وبيت الشيخ يوسف جحا الذي يحوي ايقونة نادرة يعود تاريخها الى مئات السنين قدمها البابا ليون الثامن ممهورة بخاتمه الخاص هدية منه الى آل جحا. وهناك عدد من المنازل القديمة ذات الفنون المعمارية الملفتة ، منها بيوت آل الاسطا، وسكاف، ومطران، وتابت، والحاج شاهين، والهندي، وعازار، والمركز الثقافي الفرنسي وغيره.

اتسمت البيوت القديمة في زحلة بانماط هندسية مختلفة. فالبيت الذي ابصر فيه النور الشاعر الكبير الراحل سعيد عقل سنة 1912 بالقرب من مطرانية سيدة النجاة للروم الكاثوليك، يجسد نمطا من ثقافة الهندسة المعمارية البنائية، وعبّر عن عراقته الشاعر عقل ذاته عندما كتب في جريدة "البلاد" سنة 1961 "هناك بيتنا القديم، من سنة الستين اخشابه، ولبنه وبعض حيطانه، في ظلّه عبّأ جدي البندقيات الطوال، فيه رأى النور أبي...اراه بيتنا القديم فوق، في حارة الابطال، في بلدتي زحلة، وحب زحلة، ذاك الذي من اجله ربيت". هذا البيت المرمم والمؤلف من طبقتين هو نموذج للعديد من الابنية المنتشرة في المدينة. إذ شكل بجدرانه المبنية بالحجر، وقرميده، ومداخله المزينة بسلسلة من القناطر، ونوافذه المطلة على طبيعة خلابة، حالة لتطور العمارة المصنوعة من مواد طينية وخشبية. لاحقا انتقل الشاعر عقل الى حيّ الميدان وسكن بيتا اثريا مشابها لمنزله الوالدي ويقع تجاه مطرانية الروم الارثوذكس.

تتصف الابنية التراثية المنتشرة على ضفة الوادي بنمط اكثر تطورا من الناحية الهندسية والفنية، ويعرف بـ"الايوان". وهي ابنية مؤلفة من طبقتين اوثلاث، يعلوها القرميد فوق جدران مشيدة بحجارة مقصبة مجملة بنقوش زاهية وتطاريز رائعة، ومزودة صالونا كبيرا يطل على الخارج بواسطة قناطر. وتتمتع بنوافذ مطلّة على النهر، وتثير اهتمام الزائرين بتعبيرها عن مستوى راق في الذوق والحس الابداعي، وتعكس حالة الاستقرار التي نعمت بها المدينة وادت الى نهضتها من جديد في الفترة التي تلت اقامة خط سكة الحديد في العام 1885، وفي مرحلة الانتداب الفرنسي التي تميزت بتقدم عمراني وازدهار تجاري.

لا يضاهي هذه العمارات الممهورة بطابع الذكريات والعناصر المعمارية والزخرفية، الا اديرة زحلة وكنائسها التي فاقت الاربعين،


منزل الشاعر ميشال طراد في حوش الزراعة.

منزل آل حاتم في المعلقة.


نقوش تزين مدخل منزل آل بريدي رزق.


نقوش فوق نوافذ اوتيل اميركا سابقا.

وزادت من مساحة سطوحها الحمر ومن ارثها للفنون الجميلة، وكانت اولى كنائسهم "سيدة الزلزلة" التي بنيت حوالى سنة 1700 في اعالي حيّ مار مخايل ومار جرجس، وثانيها كنيسة "مار الياس المخلصية"، ثم بني حوالى 1720 دير "سيدة النجاة" ذو الفن الهندسي المعماري الجميل والبرج العالي حيث يوجد في داخله ايقونة رائعة للعذراء قدمها ملك بافاريا. وفي سنة 1748 بنيت كنيسة مار مخايل ذات القناطر الداخلية الرائعة، وشيّدت الرهبنة الشويرية دير مار الياس الطوق سنة 1755، والرهبانية اللبنانية المارونية كنيسة ودير مار انطونيوس سنة 1775 التي تجاور مطرانية الروم الكاثوليك، وبنيت كنيسة مار نقولا للروم الارثوذكس سنة 1855 واعتمدت مطرانية وسكنها اول مطران ارثوذكسي مقيم في زحلة.

من معالمها الاثرية التي شهدت محطات بارزة، كانت فنادقها التي تؤرخ لاهم الاحداث التي حصلت في المنطقة. فاوتيل القادري الذي شيّد في العام 1906 حوّله جمال باشا العثماني في العام 1914 في اثناء الحرب العالمية الاولى الى مقر رئيسي لقيادة جيشه ومستشفى لمداواة جرحى جنوده، واعلن منه الجنرال هنري غورو في 3 آب من العام 1920 ضمّ الاقضية الاربعة (البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا) التي شكلت مع جبل لبنان "دولة لبنان الكبير" في حدودها الدولية، واستضاف في العام 1942 الجنرال شارل ديغول الذي جزم امام الاهالي الذين وفدوا لاستقباله بان الانتصار في الحرب العالمية الثانية بدأت بوادره تلوح في الأفق، وبات فيه ايضا الامبراطور الالماني غليوم الثاني وهو في طريقه لزيارة قلعة بعلبك، وكذلك امير الشعراء احمد شوقي ومحمد عبد الوهاب وام كلثوم وفيروز.

شهد "اوتيل الصحة" اقدم الفنادق، محطات ادبية وشعرية كان روادها من ابناء المدينة، وتميز مع "لوكندة اميركا" و"اوتيل عقل" بالواجهات الرائعة المزدانة بنقوش فنية. كما شهدت "قهوة بشارة قريطم" في وادي زحلة مهرجان احمد شوقي الذي خلّد زحلة في العام 1927 بقصيدته الشهيرة "يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الاحلام من ذكراك"، التي غنّاها محمد عبدالوهاب ثم نور الهدى ومن بعدها فيروز.

وشهد القصر البلدي المعروف بالسرايا القديم الذي يعود الى العام 1885، ورشة ترميم انطلقت في حزيران من العام 2016، لابراز فنونه المعمارية ولا سيما التيجان المثلثة فوق النوافذ والبارزة فوق الاعمدة، وقد بناه المعماري الزحلي نقولا قرعوني في عهد واصا باشا الذي دشنه في العام 1888، ونقش الدكتور بشارة زلزل على بابه تأريخا شعريا.

هذه المعالم التي تضفي لمسات معمارية من الفن العريق وتحمل في طياتها ذكريات وطنية، جعلت من زحلة عروسا متألقة بعماراتها المكللة بالقرميد. لكنها تعيش اليوم تحدي اعادتها الى زهوها السابق، وهذا ما دفع بالكاتب امين الريحاني الى رفع الصوت الى ادبائها وشعرائها راجي الراعي وشكري بخاش وشبل دموس والاخوين فوزي وشفيق المعلوف، شاكيا من تشويه جمالها المتواري شيئا فشيئا بين العرائش الخرساء.